محمد بن عبد الملك الزيات

للأستاذ عبد اللطيف ثابت

(تتمة ما نشر فى العدد ٦١٢)

وكما يسرف محمد بن عبد الملك فى الظلم والقسوة ، فلا يكاد يقع تحت يده مأخوذ بجريرة حتى يعاقبه أشد العقاب ، وينتقم منه أقسى الانتقام ، ناسياً أن الله بالمرصاد لكل ظالم قاس ، وأن الزمن يومان يوم له ويوم عليه — يسرف كذلك فى انتقاد الشعراء والكتاب ، يدفعه إلى هذا غلوه فى اعتزازه بنفسه ، وثقته بعلمه وأدبه ، ناسياً أن له عيوباً ومثالب شأن كل إنسان ، فاذا لم يرفق بمن يتقدمهم فليس يرفق به منقدوه .

كتب عبد الله بن الحسن الأصبهانى وهو على ديوان الرسائل إلى خالد بن يزيد « ان المتضم ينفخ منك فى غير فحم ، ويخاطب امرأ غير ذى فهم » فلما وقف عليه محمد بن عبد الملك قال : «هذا كلام ساقط سخيف ، جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزق كأنه حداد» .

ثم كان أن كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر يقول :

«وأنت تجرى أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لا تسمى بنقصان ، ولا تميل برجحان » . فقال عبد الله الأصبهانى : « الحمد لله قد أظهر من سخافة اللفظ مادل على رجوعه إلى صناعته من التجارة بذكره ربح السامع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسران من رأس المال» . فلم يلبث الأصفهانى أن انتصف منه ، وقد حقدها عليه ابن الزيات حتى نكبه .

وذكر يحيى بن خاقان فانتقصه ، وقال عنه : هو مهزول الألفاظ ، عليل المعانى ، سخيف العقل ، ضعيف العقدة ، واهى العزم ، مأفون الرأى . وهذا نقد ، ولكنه ليس على الصورة التى ينبغى أن يكون عليها النقد . وهو ناقد ولكنه فى الواقع لاينقد ، وإنما يسخر سخرية من يرى الناس دونه ، ويتهكم تهكماً لاذعاً لا نرتاب فى أن باعثه الحقد على من يرى لهم فى سماء المجد الأدبى منطوعاً ، كما يحقد على من تعلو درجاتهم فى الحياة فيماثلونه فى دولته أو يقاربونه . ولم يكن على رغم سلطانه وقوته بنجوة من التهكم به كما يتهكم ، أو السخرية كما يسخر ، ولعل أشد من تهكموا به وسخروا منه فى جرأة المغيظ المحنق ابراهيم الصولى الذى يقول له :

أبا جعفر خف خفضة بعد رفعة   وقصر قليلا عن مدى غلوائكا
لئن كان هذا اليوم يوماً حويته   فإن رجائى فى غد كرجائكا

ويقول فيه :

قلت لها حين أكثرت عذلى   ويحك أزرت بنا المروءات
قالت فأين السراة قلت لها   لا تسألى عنهمو فقد ماتوا
قالت ولم ذاك قلت لها   هـــذا وزير الإمام زيات

ويقول له :

فإن تكن الدنيا أنالتـــك ثروة
فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الإثراء منـــك خلائقا
من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

ويقول فيه :

من يشترى منى إخاء محمد   أم من يريد إخاءه مجـــانا
أم من يخلص من إخاء محمد   وله منـــاه كائنا ما كانا

ونظن أن محمد بن عبد الملك الذى يقول : « الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى المنة » ويقول : « ما رحمت شيئا قط » والذى يكثر أعداؤه وحساده ، حتى يضيق بهم ويضيقوا به ، وينال منهم وينالوا منه — نظن أن هذا الرجل لا يعرف قلبه الرفق ولا اللين ولا يحس نفسه شيئا من الأحاسيس التى تحمل على الرقة وتدفع إلى العطف ، وتلفت العقل إلى ما لا يهنأ العيش به ، ولا تجمل الحياة إلا بطلبه ، ولعلك تستبعد أن يكون منه ما يكون من ذوى القلوب الرقيقة فيواد أو يتعشق أو يتنادر ، فلا تنس أنه شاعر فهو فى الواقع يجمع بين جفاء الحاكم القاسى القلب ، ورقة الشاعر الذى يحس بما فى الحياة من لذة وألم ، وعرف ونكر .

اعتل الحسن بن وهب كاتبه ، فتأخر عنه أياماً كثيرة لا يأتيه رسوله ولا يتعرف خبره ، فكتب إليه الحسن :

أيهـــذا الوزير أيدك اللـ   ـه وأبقـــاك لى بقاء طويلا
أجيـــلا تراه يا أكرم النا   س لكيما أراه أيضا جيـــلا
إننى قد أقمت عشرا عليلا   ما ترى مرســلا إلى رســولا

إلى آخر أبيات رقيقة تضمنت عتبا رقيقا فأجابه محمد :

دفع الله عنــك نائبــة الدهـ ـر وحاشاك أن تكون عليلا
أشهــد الله ما علمت وما ذا ك من العــذر جائزا مقبــولا
إننى أرتجى وإن لم يكن ما كان ممــا نقمت إلا جليــلا
أن أكون الذى إذا أضمر الإخـ ـلاص لم يلتمس عليـه كفيلا
فاجعلن لى حظ التعلق بالقد ر سبيلا إن لم أجد لى سبيلا
فقــديما ما جاد بالصفح والعفـ ـو وما سامح الخليل الخليلا

واستقى منه الحسن نبيذاً وهو مع المعتصم ببلاد الروم فسقاه وكتب إليه :

لم تلق مثــلى صاحبا أندى يداً وأعم جــودا
يسقى النــديم بقفرة لم يسق فيها المـاء عودا
صفراء صافيــة كأ ن بكأسها دراً نضيدا
وأجود حين أجود لا حصراً بذاك ولا بليدا
وإذا استقل بشكرها أوجبت بالشكر المزيدا

وكتب إليه راشد الكاتب وقد عاد من الحج

لاتنس عهــدى ولا مودتيــه واشتق إلى طلعتى ورؤتيــه
فإن تجاوزت ما أقول إلى العصب فذاك المأمول منك ليــه

فأجابه محمد :

يا بأبى أنت ما نسيتك فى يوم دعائى ولا هديتيـــه
ناجيت بالذكر والدعاء لك اللـــه لك الله رافعــاً يديه
حتى إذا ما ظننت بالملك الـ قادر أن قد أجاب دعوتيــه
قمت إلى موضع النعــال وقد أقمت عشرين صاحبا معيــه
وقلت لى صاحب أريد له نعلا ولو من جلود راحتيــه
ثم تخيرت بعــد ذلك من الـ ـعصب اليمانى بفضل خبرتيــه
موشــية لم أزل ببائعهــا أرغب حتى زها على بيــه

وعشق جارية من جوارى القيان ، فكان منه ما يكون من العشاق ذوى القلوب الرقيقة ثم بيعت الجارية لرجل من أهل خراسان وخرج بها ، فذهل عقل ابن الزيات حتى نشى عليـه ، وفيها يقول :

ياطول ساعات ليــل العاشق الدنف
وطول رعيتــه للنجم فى السدف
ماذا توارى ثيابى من أخى حرق كأنما الجسم منــه دقة الألف
ما قال يا أسفا يعقوب من كمد إلا لطول الذى لاقى من الأسف
من سره أن يرى ميت الهوى دنفاً
فليســتدل على الزيات وليقف

ويتمادى بدافع من التظرف فى التشبه بشعراء المجون من أبناء عصره فيظهر الوله بغلام رآه على فرس ، ويتنزل فيـه على سنتهم ولا يأنف أن يذكر به ، بل هو يتمنى أن لو كان فارس ذا الفارس وتؤثر عنه أمثلة من التنادر ، تصور ما طبعت عليه نفسه من رقة وظرف فى بديهة حاضرة وخاطر سريع وإن ظهر فى بعضهـا متهكما ساخراً ، وهو يقدر ما يجابه به أو يكتب إليـه من ظريف التنادر فيطرب ويضحك ، ويوقع فى جو الطرب والضحك بما يريد المتنادر ، بل قد يقربه إليه ويصطنعه .

فمن ذلك أنه جلس يوما للمظالم ، فلما انتهى المجلس ، رأى رجلا جالساً فسأله ألك حاجة ؟ قال نعم ، أدننى إليك فإننى مظلوم وقد أعوزنى الإنصاف . قال ومن ظلمك ؟ قال أنت ، ولست أصل اليك فأذكر لك حاجتى . قال ومن يحجبك عنى ؟ قال يحجبنى عنك هيبتى لك ، وطول لسانك ، وفصاحة قولك ، واطراد حجتك . قال ففيم ظلمتك ؟ قال أخذ وكيلك ضيعتى الفلانية غصباً ، فإذا وجب عليها خراج أديته باسمى لئلا يثبت لك ملكها ، فوكيلك يأخذ الغلة وأنا أؤدى الخراج ، فهل سمعت بمثـل هذا فى الظلم ؟ فقال محمد قولك هذا تحتاج عليه إلى بينة وشهود وأشياء ، فقال له الرجل أيؤمننى الوزير حتى أجيب ؟ قال نعم أنت آمن . قال البينة هم الشهود ، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شىء ، فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء ؟ إيش هذه الأشياء إلا العى والتغطرش ! فضحك وقال صدقت ، والبلاء موكل بالمنطق ، وإنى لأرى فيك مصطنعا ، ثم وقع له برد ضيعته .

ومن ذلك أن أبا دهمان المغنى سرق منه منديلا ديبقيا ، وأخفاه تحت عمامته ، وبلغه فقال .

ونديم سارق خاتلــنى وهو عندى غير مذموم الخلق
ضاعف الكور على هامته وطوى منديلنا طى الخرق
يا أبا دهمان لو جاملتنا لكفيناك مؤونات السرق